



الدكتور محمد عمارة

ثورة الزنج

المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان

خالد علي بورقيج

ثورة الزنج

[illegible] الزنجي

كتاب الشعب

الدكتور محمد عمارة

ثورة الزنج



منشورات
المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان

العدد ١١ — نوفمبر ١٩٧٩

الطبعة الأولى

١٩٧٩ م.

تقديم

عندما أكتب اليوم عن ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد (٢٧٠ هـ ٨٨٣ م) فإنني أحقق بذلك أمنية تمنيتها منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمان . . فلقد قرأت يومها صفحات كتبها المرحوم الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) عن هذه الثورة . قارن فيها بينها وبين ثورة اسبارتاكوس (Spartacus) (٧٣ - ٧١ ق.م.) لتحرير العبيد من مظالم الدولة الرومانية واستعبادها . . وتمنى في بحثه ذلك أن تحظى ثورة الزنج بما حظيت به ثورة اسبارتاكوس ، في حقل الأدب والفن ، عندما استلهمها عدد من عمالقة هذا الميدان في حضارة الغرب ، فقدموا لشعوبهم تراثها القديم في الثوب الذي يعين هذه الشعوب على تحقيق المزيد من الحرية والتقدم لحاضرها الذي تعيشه ولمستقبلها المأمول .

فمنذ ذلك اليوم تمنيت أن أكتب عن ثورة الزنج . . وكبرت الأمنية ونمت مع السنوات ، وخاصة بعد أن أصبح التراث العربي الإسلامي ، وصفحاته المشرقة بالثورة ، وبأحلام العدل الاجتماعي ، وبإعلاء سلطان العقل كي يطارد الخرافة ، هي الميدان الذي وقفت عليه أغلب الجهد الذي قدمته وأقدمه في التأليف والتحقيق . .

صحيح أنني أشرت إلى هذه الثورة في صفحات قليلة تضمنها كتاب لي صدر في سنة ١٩٦٨ م[١] . . ولكنها كانت مجرد إشارة لا تشفي غليل الباحث ولا تروي عطش القارىء ، ومن ثم فإنها لم تحقق ما تمنيته عندما طالعت ، مبكراً حديث الدكتور طه حسين عن هذه الثورة وقائدها علي بن محمد .

وإذا كنت أتقدم اليوم لكتابة هذه الصفحات عن ثورة الزنج ، بعد أن قدمت عدداً من الدراسات عن هذه القسمة -

---

(١) أنظر (فجر اليقظة القومية) ص ٨٧ - ٨٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م. وص ١٤٩ - ١٥٣ من الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٧٥م.

قسمة الثورة ـ في تراثنا الإسلامي وتاريخنا العربي[1] ، فإن الأمانة تستوجب التنبيه على أن الكتابة عن ثورة الزنج ربما كانت أصعب عن غيرها من ثورات تاريخنا وتراثنا . . فثورات الشيعة ، وإن كانت قد ظلمت من خصمها ، إلا أنها قد وجدت الإنصاف من أنصارها وكتابها . . وكذلك الحال بالنسبة لثورات المعتزلة ، إلى حد ما ، وثورات الخوارج ، وكذلك ثورات الموالي . . وغيرها من تيارات الفكر والسياسة في تراثنا . . أما ثورة الزنج فإنها تكاد أن تنفرد بالافتقار إلى المؤرخ المنصف أو المحايد ، فضلاً عن النصير . . فخصومها ـ وكل المؤرخين كانوا خصوماً لها ـ قد نسبوها ، على سبيل الذم والاتهام ، إلى تيارات فكرية كانوا يناصبونها العداء .

● قالوا أنها كانت على مذهب الخوارج . . ولم يقدموا على

---

(١) انظر كتبنا (مسلمون ثوار) طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٤م . و(الاسلام والثورة) و(المعتزلة والثورة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م . و(الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز) ، ودراستنا عن (النفس الزكية) مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٧٧م ودراستنا عن (عمرو بن عبيد) مجلة الهلال عدد ابريل سنة ١٩٧٧م.

ذلك دليلاً تطمئن اليه النفس . . ثم جاء الخوارج فأنكروا أنها من ثوراتهم ، ومن ثم فإنهم لم يدافعوا عنها ، ولم يهتموا بحفظ تراثها ومادة أحداثها على النحو الذي ييسر مهمة الباحثين عنها وفيها . . وقالوا إنها إحدى ثورات « العلويين » ـ أبناء علي بن أبي طالب ـ ضد « العباسيين » . . ثم قطعوا بأن انتساب قائدها الى « العلويين » هو محض ادعاء ـ ثم جاء الكتاب والمؤرخون من أنصار « العلويين » ، والشيعة بعامة ، فأهملوها عندما أرخوا لثوراتهم فوافقوا ، في التجاهل على الأقل ، خصوم هذه الثورة . .

ويكفي كي ندرك مصاعب الكتابة الجادة والوافية عن هذه الثورة ، أن نعلم أن المصدر الأول والأساسي والأوفى في الحديث عنها هو تاريخ الطبري ـ (تاريخ الرسل والملوك) ـ . . فلقد أفرد لها أكثر من مائتي صفحة[1] ، وهو ما لم يصنعه مع ثورة أخرى من الثورات التي تحدث عنها . . وهو قد عرض بتفصيل واف لأحداث القتال فيها ، حتى ليكاد يرسم ، بالكلمات خريطة مواقع القتال وقادته وأحداثه . . وإن يكن قد

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤١٠ ـ ٦٦٣ . طبعة دار المعارف القاهرة .

أغفل إلى حد كبير ما قامت لأجله من أهداف . . ثم إن الطبري ، محمد بن جرير (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ/ (**٨٣٩ ـ ٩٢٣م)**قد عاصر هذه الثورة ، وكان في بغداد ، على مقربة من ميادين قتالها ، يسمع الأخبار ويعيش الأحداث ثم أنه قد روى الكثير عن شاهد عيان أحداث هذه الثورة . . ومع كل هذا تظل الصعوبة قائمة أمام الباحث عن المادة الوافية لفكر هذه الثورة وآراء أصحابها . . فالطبري الذي يقدم أهم أخبارها وأكثرها ، ينطلق في تأريخه لها من منطلق العداء ، بل والعداء الشديد . . فهو يطلق على قائدها : علي بن محمد ، أوصافاً من مثل : « الخبيث » و« اللعين » و« الخائن » و« الفاسق » ؟؟ بل ويكتفي بصفة من هذه الصفات ، أو أكثر ، عندما يريد الحديث عن قائد ثورة « الزنج » ، ولا يذكر اسمه إلا في القليل ، وفي مجال تفنيد ادعائه الانتساب الى « العلويين » ؟ . .

بل لقد تصاعد العداء لعلي بن محمد ، فتجاوز اتهامه « بادعاء النسب العلوي » إلى اتهامه « بادعاء أن النبوة قد عرضت عليه » فيروي الطبري عن محمد بن الحسن[1] أن محمد

(١) محمد بن الحسن بن سهل ، المعروف بشيلمة (كان حياً قبل ٢٨٩ هـ ـ ٩٠٢م) وهو المصدر الرئيسي للطبري في أخباره عن ثورة الزنج . أديب ومؤرخ ، صحب قائد ثورة الزنج زمناً، ثم انضم =

ابن سمعان حدثه أن قائد الزنج قال له في بعض أيامه :

- لقد عرضت علي النبوة فأبيتها .

- ولم ذاك ؟

- لأن لها أعباء خفت ألا أطيق حملها[1] . .

فأية صعوبة يجدها الباحث عن حقيقة هذه الثورة في مثل هذه الصفحات من مصادر التاريخ ؟ . . بل : أية صعوبة لا يجدها الباحث في هذه المصادر وذلك التاريخ ؟

* * *

لكن . . لعل في المنهج العلمي الذي نلتزمه في البحث ما يعين على النقد والتمحيص للروايات وللمأثورات ، ولعل في مقارنة هذه الروايات والمأثورات ، وعرض بعضها على البعض الآخر ، ما يساعد على تلمس الصواب بين ركام من الاتهامات

= إلى الدولة في عاصمتها بغداد طالباً الأمان، فأعطي له. . ولقد أحرقه الخليفة المعتضد حياً لأنه ، كما قيل ، سعى الى بعض الخوارج ! ومن كتبه (كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه) .
انظر : ابن النديم (الفهرست) ص ١٢٧ طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.

(١) تاريخ الطبري . جـ٩ ص ٤٩٩ .

التي أفرزها الخلاف الفكري والعداء السياسي والصراع الطبقي والاجتماعي . . الأمر الذي يتيح للقارىء العربي المعاصر أن يرى اليوم صفحة من صفحات الثورة في تاريخه وتراثه ، فيدرك : كيف تطلع أسلافه إلى العدل ، وكيف سعوا إلى مجتمع تخف فيه القيود وترتفع فيه عالية إنسانية الانسان . . ففي ذلك زاد لإنساننا المعاصر ، يعينه على اقتحام العقبات لصنع الحاضر المشرق والغد الأكثر إشراقاً ، بقدر ما يعينه على أن يرتبط بتراث أمته وحضارتها . . فعندما يصبح التراث روحاً سارية في جسد الأمة وضميرها ، عبر العصور ، ورغم القرون ، تصبو ، ولا شك ، أجيالها الحاضرة على مواصلة مسيرة الأسلاف العظام ، وذلك حتى يكونوا خير خلف لهؤلاء الأسلاف . .

لمثل هذا الهدف تطيب مشاق البحث ، وتصبح معاناته إحدى الملذات . .

ثم . . متى كان البحث عن الحقيقة ، والسعي لإبراز الحق وإظهاره على الباطل أمراً هيناً أو ميسوراً ؟ . .



لماذا الثورَة ؟



لقد بلغت الحضارة العربية الإسلامية سن رشدها ، ووصل عطاؤها إلى كثير من أركان المعمورة ، وكان عصرها الذهبي على عهد الخلفاء العباسيين المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) . . أي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي ـ . .

ولقد كان هؤلاء الخلفاء الثلاثة من أنصار التيار العقلاني في الفكر الإسلامي ، إذ كانوا على مذهب (المعتزلة) ، أهل العدل والتوحيد . . وفي ظل حكمهم استخدم التيار العقلاني جهاز الدولة في إشاعة مفاهيمه ، وتدعيم القسمات التي تميزت بها حضارتنا في عصرها الذهبي هذا . .

والمعتزلة كانوا ، في النشأة والتطور ، تياراً سياسياً ، لهم

جمهور واسع وعـريض . . . ولـكن الاهتمام المتـزايد بالمباحـث العقلية ، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية ، قد تحول بهم ، أكثـر فأكثـر ، إلى تيار فلسفـي ، وفلاسفـة الهيين ، فغـدوا ، بالقياس إلى « الجمهور » و« العامة » ، يمثلون « الأرستقـراطية الفكرية » إلى حد كبير . .

أما خصوم المعتزلة ، من الفقهاء وأهل التقليد ممـن يقفـون عند المأثورات وظواهر النصوص فإنهم كانوا أقرب إلى مستوى « العامة » وفكر « الجمهور » . . ومن هنا شعر المعتزلة ، رغـم وجود السلطة في أيديهـم ، بأن قوة خصومهـم ، المستنـدة إلى « العامة » ، قد غدت تهدد سلطانهم الفكري وتعوق السيطرة المذهبية التي يريدون . . وبدلاً من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول« الإلهيات » و« القولات الفلسفية » في اطار « الخاصة » ، وإفسـاح المجـال لحـرية الخـلاف والاختـلاف ، سعى فريق من المعتزلة إلى صبغ كل المجتمع بمذهبه العقلاني المتقدم والمستنير ، واستخدموا لذلك : « العقل » و« السلطـة » معـاً ؟ . . وعندمـا حدثـت بعض التجـاوزات ووقـع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم ، وخاصة بصدد القول بخلق القرآن ، لجأ خصومهم إلى « العامة » ، واستنفروها للدفاع عن

عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة والساذجة ، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع إلى مواقع التربص للهجوم . .

فمثلاً . . يشكو الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥هـ/٧٨٠ ـ ٨٦٩ م) من قلة « العوام » في صفوف المعتزلة ، وكثرتهم في معسكر الخصوم[1] . . وينبه إلى أن خصوم المعتزلة ، من الفقهاء ، قد جمعت بينهم وبين « العامة » النفرة من الفكر الفلسفي العقلاني المركب ، وللاستنامة إلى ظواهر النصوص وتبسيط المعتقدات والأفكار ، واختيار « التشبيه » مثلاً ، بدلاً من « التنزيه والتجريد » . . . الخ . . الخ . . كما ينبه إلى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة « العامة » واستخدامها في تحقيق طموحاتهم ، فهم قد « أملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوي لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم[2] » . . كما حذر الجاحظ أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة « المهادنين والمسايرين » لأن ذلك لا يعدو خلق النفاق ومظاهره ، ولم

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

(٢) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٣٣٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

ينقص من عدد الخصوم « فإن عدد الجماجم على حاله ، وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليل من كثير ؟ ونحن لا ننتفع بالمنافق ، ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجانح ، وإن كانت المبادأة قد نقصت فإن القلوب أفسد ما كانت . .

وهم اليوم الى المنازعة أميل وبها أكلف[1]»

وعندما وضحت للمعتزلة ، ودولتهم ، أن قيادة خصومهم للعامة تتدعم وتتأكد استشعروا الخطر « فالعوام إذا كانت نشراً - (متفرقة) - فأمرها أيسر ، ومدة هيجها أقصر ، فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وإمام مقلد ، فعند ذلك يموت الحق ويقتل المحق[2] .

وحتى لا « يموت الحق ، ولا يقتل المحق » - كما قال الجاحظ - ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر ، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها « إقناع » الخصوم بما لها من آراء . .

وأمام القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار سعت الدولة إلى زيادة الاعتماد على القوة العسكرية -

---

(١) المصدر السابق ج ٢ - ص ١٢٦ . طبعة القاهرة ١٩٦٥ م.

(٢) المصدر السابق . جـ١ ص ٢٨٣ .

الجيش ـ واتخذت الخطوات إلى تنمية حجم هذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان . .

وكانت الحضارة والرفاهة والازدهار قد ابتعدت بالعنصر العربي عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات . . كما أن أحلام الموالي ، ذوي الاتجاه الشعوبي قد صرفت الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذي سعى الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) إلى تكوينه كي يواجه به هذه الظروف وما خلفها من احتمالات . .

لقد كوّن المعتصم ، ضمن جيشه فرقة (الجند المغاربة) من موالي حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس . . وفرقة (الفراغنة) من أهل فرغانة . . وفرقة (الأشروسية) من أهل أشروسية . . ولكنه سعى فارتكب أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك ، ويقيم لهم المعسكرات ، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة . . حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي « سامراء »[1] . .

---

(١) المسعودي (مروج الذهب) جـ٢ ص ٦٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذه الجند الغريب ، حضارياً وقومياً ، عن المجتمع ، سيحصل على أداة القمع الأسهل قياداً ، والتي لا أمل لها في السلطة ، ولا مصلحة لها في الصراعات الناشبة من حولها ، وأنه بذلك سيقيم القوة الضاربة التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالي وغيرهما من العناصر والأجناس المتصارعة والمتنافسة . .

ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه . . فالمدينة التي بنيت لها معسكراً تابعاً للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١ هـ ـ ٨٣٦ م) الى عاصمة للدولة ، انتقلت اليها الخلافة وأصبحت بغداد تابعة لها . . وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة ، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم ، يولون من أطاع ويعزلون من عصى ، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرد على أوامر المماليك الأتراك ؟!

وبسبب أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي : جند وجيش . . كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية . . وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلف قادتها ، بداهة ، عن نمط التفكير العقلي والفلسفي كانت أميل الى « العامة » وأمعن في عدائها

للفكر الفلسفي والآراء المستنيرة والتيار العقلاني . . وهكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصناً للحضارة العقلانية ، ضد « العامة » ، تحولت إلى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه « العامة » وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني ، بالتوقف ، فالجمود فالتراجع ، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١ م) على السلطة ، بعد موت الخليفة الواثق . .

ولقد رضيت العامة وفقهاؤها ، من النصوصيين ، لقصر نظرها ، عن هذا الانقلاب . . ولكن سرعان ما أفاقت على صوت ناقوس الخطر الأشد . . فلقد استأثر الجند الأتراك بخيرات المجتمع المادية ، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية . . وتركوا العامة وفقهاؤها يسعدون بزوال دولة المعتزلة وانحسار فكرها العقلاني ، ويتشفون في خصوم الأمس الذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون . .

لقد عم الاضطهاد ، منذ عهد المتوكل ، كلاً من المعتزلة والعلويين، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من « حقوقه المدنية » ـ بلغة عصرنا ـ عندما أسقطت شهاداتهم أمام القضاء ، وسلبت حقوقهم الاقتصادية ، وأصابهم الكثير من

التمييز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسانية[1] . . وذلك فضلاً عن تجريم فكر المعتزلة وتحريمه بمراسيم هي أشبه ما تكون بقرارات المجامع الكنسية الكهنوتية ، الغريبة عن روح الإسلام[2] .

وفي ظل هذا الاضطهاد كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل : « وصيف » و« بغا » و« كيغلغ » و« ياجور » و« بايكباك » و« بكالبا » و« يارجوخ » و« أصغجون » و« طاشتمر » و« كنجور » و« تكين » و« أغرتمش » و« ابن كنداجيق » و« أساتكين » ؟ . . واستأثرت هذه القيادة ، مع مماليكها وأعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها ، دون العامة ، بل وزادت إثرتها فاستأثرت بهذه الثروة أحياناً دون عامة الجند والمماليك . .

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما

---

(١) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣، ٣٦٧. و : المقريزي (الخطط) جـ٣ ص ٢٧١ . طبعة دار التحرير ، القاهرة .

(٢) آدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

قتلوا الخليفة المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ (١٠ ديسمبر سنة ٨٦١م) . فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة ، يتناولونها بالعزل والتولية ، وأيضاً بالسجن ، بل وبالسم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء . .

وبعد المتوكل ولي الخلافة : المنتصر بالله ، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/٨٦١ ـ ٨٦٢م) . . وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره ، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة إلى سلطانها وسلطاتها . . وبعبارات المسعودي : « فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغباً في الخير ، سخياً ، أديباً ، عفيفاً ، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله [1] » . .

وكان المنتصر يدرك جيداً أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لا بد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الأتراك ، وأنه ، لكي يصنع ذلك ، لا بد له من قوى بديلة يعتمد عليها ويستمد منها العون والتأييد . . فشرع يتقرب الى

---

(١) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٢٦ .

العلويين ، ورفع عنهم مظاهر المحنة التي كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل فلم تعد زيارة قبر الحسين ، وغيره من مشاهدهم ، أمراً محرماً ، ورد اقطاع « فدك » ـ بالقرب من المدينة ـ إلى ذرية الحسن والحسين ، بعد أن كانوا قد حرموا منه ، وأعاد أوقاف آل أبي طالب إلى ذويها . . وأعلن في الناس ، عامة ، « الأمان » . . وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيج [1] والموصل ، وجاءوا اليه بقائد الخوارج ، أبو العمود الشاري ، أسيراً ، عفا عنه ، « وأخذ عليه العهد وخلى سبيله . . وقال : إن لذة العفو أعذب من لذة التشفي ، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام » . .

وسار المنتصر ، في جمهور الناس ، سيرة العدل والإنصاف ، فحقق الكثير من الأهداف التي ابتغاها من وراء هذا الانعطاف الجديد ، وبعبارة المسعودي ، فإنه « أظهر الانصاف في الرعية ، فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة ، مع شدة الهيبة منها له » . .

ولقد بلغ من وضوح هذا التحول الذي أحدثه المنتصر إلى

(١) البوازيج بلد بالقرب من تكريت ، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل .

الحد الذي أصبح فيه موضوعاً لمدائح الشيعة العلوية ، الـذين كانوا بالأمس خصوماً للخلافة وثواراً عليها . . وشاعرهـا يزيد ابن محمد المهلبي يعبر عن ذلك عندما يخاطب المنتصر فيقول :

ولقد بررت الطـالبية بعدما ذمـوا زمانـاً بعدهـا وزمانا
ورددت ألفة هاشم فرأيتهم بعد العـداوة بينهـم أخوانا
آنست ليلهم وجدت عليهم حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم لـرأوا أثقـل من بهـا ميزانـا

ولقـد أراد المنتصر أن يستثمـر تلك القـوة التـي حققهـا له « السلام » مع المعارضين والثوار ، والعدل مع الرعية في تحرير جهاز الدولـة من استبـداد قادة الجنـد الأتـراك . . فطلـب إلى « وصيف » ـ وهو أحد اثنين تركزت بأيديهما السلطة والسلطان ـ أن يترك العاصمة ، على رأس جيش ، لقتال الروم ! . وأسر إلى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك ، وعندما أبصر « بغا » ـ صنو « وصيف » وشريكه ـ يختال في قصر الخلافة ومن حوله الأتراك ، قال للفضل بن المأمون : « قتلني الله إن لم

أقتلهم وأفرق جمعهم[1] . . هؤلاء قتلة الخلفاء[2] . .

ولكن الأتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم . وكما يقول المسعودي : « فلما نظرت الأتراك إلى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه الفرصة » بأن أوعزوا إلى طبيبه « الطيفوري » فقتله باستخدام مشرط مسموم في إجراء « حجامة » له ، فلقي مصير المتوكل في ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ ، بعد خلافة لم تتعد ستة أشهر[3] .

وبعد التخلص من المنتصر ، أجلس الأتراك على عرش الخلافة خليفة ضعيفاً مستسلماً هو المستعين بالله ، أحمد بن محمد ابن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ/٨٦٢ ـ ٨٦٦م) واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان ، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين ، وصور مكانه بين « وصيف » و« بغا » فأجاد الوصف عندما قال :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا !

---

(١) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ .
(٢) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٢٥٢ .
(٣) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٢٢٦ .

ولقد امتدت يد الأتراك بالاضطهاد ، قتلاً ونفياً وسجناً وحرماناً ، إلى حاشية الخليفة السابق ، المنتصر ، فنفي وزيره : أحمد بن الخصيب إلى اقريطش - (كريت) - ونفي عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى برقة [1] . . واعتقلت جماعة من هذه الحاشية ببغداد . . وكان من بين هؤلاء المعتقلين : علي بن محمد [2] ، الذي سيقود ثورة الزنج . . والذي كان واحداً من المقربين للخليفة المنتصر ، والمعاونين له على تحرير الخلافة من استبداد الأتراك ، وعلى إشاعة العدل ، بدلاً من الظلم ، بين الناس . .

ذلك هو أول خيط يمسك الباحث بطرفه كي يتتبع بدايات الفكر الإصلاحي ، ثم الثوري ، عند علي بن محمد . . ويسهم علي بن محمد ، نفسه ، في إلقاء الضوء على هذا الخيط بأبيات شعره التي يدين بها أوضاع الخلافة المتهاوية ، واستبداد الترف والمترفين ببلاط بغداد ونظام الحكم فيها :

لهف نفسي على قصور ببغدا
د وما قد حوته كل عاص

(١) المصدر السابق . جـ٢ ص ٤٣٣ .
(٢) (ابن خلدون (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ . طبعة بولاق ، القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

وخمــور هنــاك تشرب جهـرا
ورجــال على المعاصـي حـراص
لســت ابــن الفواطــم إن لم
أجــل الخيل حول تلك العـراص !

فهو يدين ذلك النظام ، ويعلن أنه لن يكون جديراً بنسبة العلوي إن لم يقتحم بخيل الثورة تلك الساحات التي استبد بها الأتراك المنتشون بالسلطة ، والمترفون المخمـورون والمقترفـون للمعاصي في وضح النهار ؛ . . فلقد كان الرجل كما قالوا : بعيد الهمة ، تسمو نفسه الى معالي الأمور [1] .

ولقـد تصاعـدت مظالـم الأتـراك ، وزاد استبدادهـم بالخلفاء . . فلم يكفهم ما أظهره الخليفـة المستعـين من ضعف وخضوع ، فخلعوه ، ثم قتلوه ، فشاع في الناس رعب وفزع ، عبر عنهما الشاعر البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ/٨٢١ ـ ٨٩٨م) عندما قال :

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٢٧ . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة ١٩٥٩م.

لله در عصابــة تركيـــة

ردوا توائــب دهــرهــم بالسيــف

قتلــوا الخليفــة أحمــد بن محمد

وكســوا جميــع النــاس ثـوب الخــوف

وطغوا فأصبح ملـكنا متقسما

وإمــامنــا فيه شبيـه الضيــف (١)

فالملك قد اقتسمه كل من « وصيف» و« بغا » ، أما نصيب الخليفة (الإمام) فهو نصيب الضيف .. أما الرعية فنصيبها الرعب والفزع والحرمان ..

وبعد المستعين تولى الخلافة : المعتز بالله ، الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/٨٦٦ ـ ٨٦٩م) فكان مصيره نفس مصير المستعين ، خلعوه ، وحبسوه ، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام ؛ .. وقال الشعراء في رثائه ، ضمن ما قالوا :

أصبح التـرك مالـكي الأمـر والعا

لم ما بين سامع ومطيع (٢)

وبعد المعتز ولي الخلافة : المهتـدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ

(١) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) المصدر السابق. جـ ٤ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ .

٨٦٩ ـ ٨٧٠م) فراودته مطامح التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر، بل لقد تطلع الى أن يكون في بني العباس كما كان عمر بن عبد العزيز (٦٢ ـ ١٠١ هـ/٦٨١ ـ ٧٢٠م) في بني أمية ؛ وقال لخاصة أقربائه : « يا بني هاشم ، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز ، في بني أمية . . »

لكن عمر بن عبد العزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذري العميق ، بل بالثورة[1] . . على حين كان المهتدي أسير الاستبداد الذي جعل السلطة حكراً على قادة الجند الأتراك . . . ولقد جادلوه محذرين إياه من السعي في هذا السبيل ، لأنهم وجنودهم لا يرغبون في العدل ولا يبيحون لأحد السعي نحو تحقيقه . . . ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين :

ـ أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟ .
ـ أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين .

ـ إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في

(١) أنظر كتابنا (الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز)

الآخرة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، وأنت إنما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟ [1] . .

ولما استشعر الناس بما يبيت قادة الأتراك ضد المهتدي حاولوا الحركة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغيير وكان توزيع الرقاع - (المنشورات) - الداعية لمساندة الخليفة واحداً من مظاهر حركتهم هذه ، وفي واحد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه كتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . يا معشر المسلمين ، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضى ، المضاهي لعمر بن الخطاب ، أن ينصره على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه ، وهو يعذب منذ أيام . . رحم الله من أخلص النية . ودعا وصلى على محمد ، صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٣ .

بل أن قطاعاً كبيراً من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدي ، ضد قادتهم الذين استأثروا دونهم العطاءات والاقطاعات ، ووجه الجنود « رسالة الى المهتدي شكوا فيها سوء حالهم ، وتأخر أرزاقهم ، وما صار من الاقطاعات الى قوادهم التي أجحفت بالضياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج : » . .

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

- رد السلطة للخليفة .
- ورد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين بالله .
- ووضع نظام جديد لتنظيمهم .
- وإسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد .
- وأن لا يدخل الموالي في سلك « الملتزمين » ـ (القبالات) ـ أي الوسطاء بين الدولة والفلاحين ، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .
- وأن يكون عطاء الجند كل شهرين .

● وإبطال الاقطاعات التي منحت للقواد[1] . .

لكن قادة الترك نجحوا ، فأوقفوا تحـرك العامـة ، واحتـووا حركة الجند وتجمهرهم . . ثم قتلوا الخليفة المهتـدي بالله بعـد خلافة لم تتعد أحد عشر شهراً ؟!

على هذا النحو كانت حال الدولة . . والى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجـم الأتـراك . . لقـد سدوا على الخلفـاء المصلحـين مسالك الاصلاح ، وأغلقوا السبل أمام كل من راودتـه آمـال الاصـلاح من خلال جهـاز الدولـة ، بعـد أن سيطـروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشئونه كل الاستبداد !

وعندما تغلق الأبواب أمام الإصلاح ودعاته يبصر الناس سبلاً كثيرة تفتح أمام الثورة والثوار؟! . . لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد ، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر ، إندلاع الانتفاضـات والتمـردات والثـورات التـي قادهـا ، على وجـه الخصوص ، ثوار علويون . .

● ففي سنة ٢٤٨هـ ثار ، بالكوفة ، أبو الحسين يحي بـن

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٦ .

عمر بن يحي بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

● وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بطبرستان ، الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وامتدت ثروته الى جرجان ، واستقرت دولته بهما حتى سنة ٢٧٠هـ .

● وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بالري ، محمد بن جعفر بن الحسن ، كي يضم « الري » الى الدولة العلوية التي تأسست بطبرستان .

● وبعد فشل ثورة الري ، التي تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن ثار بها ، ثانية ، أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .

● وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار ، بقزوين ، (الكركي) الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .

● وفي سنة ٢٥٠ هـ، ثار ، بالكوفة ، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب . .

وفي هذا المد الثوري قامت ثورة الزنج ، بزعامة علي بن محمد. . فلقد بدأت جولته الأولى ضد الدولة التي سيطر عليها الأتراك سنة ٢٤٩هـ ، بعد أن تخلص من الاعتقال مع حاشية المنتصر ببغداد ، وذلك عندما ذهب الى البحرين ، ودعا الى الثورة ، فتبعه الكثير من العرب القاطنين بمدينة « هجر »[١] ، حيث بدأ بهم صداماته الأولى مع الدولة العباسية الخاضعة لسيطرة قادة الجند والأتراك . .

لقد رفض علي بن محمد، بالثورة المقام على الضيم الذي سام به القادة الأتراك الأمة في ذلك التاريخ ، وعبر شعره ، كما عبر موقفه ، عن هذا الرفض عندما قال :

رأيت المقام على الاقتصاد   قنوعاً به ذلة في العباد
إذا النار ضاق بها زندها   ففسحتها في فراق الزناد
إذا صارم قر في غمده   حوى غيره السبق يوم الجلاد[٢]

إنها النار ضاق بها مكمنها . . والسيف يرفض أن يقيم في الغمد كي لا يحوز سواه قصب السبق يوم الجلاد ! . .

(١) المصدر السابق، جـ٩ ص ٤١٠ ، و(العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .
(٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٢٨ .



القائد والثورة



مصادر التاريخ لا تشفي غليل الباحث عن حياة علي بن محمد قبل أن يقود ثورته ، وقبل أن تصبح هذه الثورة خطراً يهدد الخلافة العباسية ، أو بالأحرى الدولة العسكرية التركية التي كانت تحكم في « سامرا » من تحت عباءة الخلفاء العباسيين . . والرجل ليس بدعاً في ذلك ، فهكذا ، دائماً ، كان حال أعلام التاريخ والفكر والتراث العربي الإسلامي ، تندر المعلومات عن حياتهم فيما سبق شهرتهم من سنوات . . بل أن علي بن محمد يشارك عدداً من هؤلاء الأعلام في خلو مصادر التاريخ من تحديد العام الذي ولد فيه ! . . . .

وما تقوله لنا هذه المصادر عن تلك المرحلة من حياته لا يعدو :

● أن اسمه : علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . . فجده الرابع

هو زيد بن علي ، الذي تنسب إليه فرقة الزيدية ، أبـرز فرق الشيعـة التـي اتخـذت الثـورة سبيلاً لتحقيق أهدافهـا ، تلك الأهداف التي اتفقت أصولها تمام الاتفاق مع فرقة المعتزلة . . بل لقد كان زيد بن علي ، معتزلياً ، وأول إمام من أئمة المعتزلة يقود أولى ثوراتهم ضد بني أمية على عهد هشام بن عبد الملك (سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م) .

أما أمه فهي من بني أسد ـ (أسد بن خزيمة) ، وجدها هو محمد بن حكيم الأسدي . من أهل الكوفة وأحد الثوار الذين ثاروا خلف زيد بن علي ، ضد بني أمية ، أيضاً ؟ ! (١) .

● وأنه قد ولد ونشأ في « ورزنـين » ، وهـي قرية كبـيرة ، تقرب من أن تكون مدينة ، كانت من أعمال « الري » ، وهي مدينة كبيرة في شمالي إيران ، إلى الجنوب الشرقي من طهران . . ولقد كان أهل « الري » ـ كما يقول « الاصطحري » (٣٤٦ هـ ٩٥٧م) ـ ذوي شهرة في التمذهب بالمذاهب المتصارعة ، وإقدام

---

(١) (تـاريخ الطبـري) جـ ٩ ص ٤١٠ ، وفي تاريخ ابـن خلـدون ، (العبر) . مجلد ٤ ص ١٨ ـ أن اسمه هو : علي بن محمد بن أحمد ابن عيسى بن زيد بن علي . . فزيد بن علي ، هنا ، هو جده الثالث . وانظر ـ في ـ نسبه لأمه ـ (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٢٧ . .

على القتال في سبيل المذاهب التي يعتنقون ! . . [١]

● ولقد اشتغل علي بن محمد في فترة من حياته معلم أطفال هكذا تقول المصادر . . وإن كنا نستنتج منها أنه كان معلماً لغير الأطفال أيضاً ، فهذه المصادر تقول أنه كان « يعلم الخط والنحو والنجوم [٢] . . ولا نعتقد أن أطفال ذلك العصر كانوا يتعلمون النجوم ! . .

● وعندما يظهر ـ بمصادر التاريخ ـ في « سامراء » نعلم أنه أحد القريبين من آل الخليفة الطامح للعدل والمعادي للمؤسسة العسكرية التركية : المنتصر بالله . . فلقد أشبه أن يكون واحداً من أتباعه وأنصاره وحاشيته . . ، توثقت صلاته «ببشير» ، خادم المنتصر ، وبغانم ، الشطرنجي ، وسعيد الصغير ، وغيرهم من رجال حاشيته . وكتاب الدولة . . وعندما نجح قادة العسكر الأتراك ، المماليك في التخلص ، بالسم ، من الخليفة المنتصر بالله وشتتوا ، بالقتل أو النفي أو الاعتقال ، أنصاره ،

---

(١) صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) جـ١ ص ٦٥١. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤م. و(مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٧٠ . و(تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤١٠.

(٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٢٧ .

كان علي بن محمد ضمن الذين اعتقلوا - (حجبوا) - ببغداد[1].

● وفي سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م ، أي بعد عام من موت المنتصر بالله ، وسجن من سجن من حاشيته اشترك عامة أهل بغداد مع فرقة من الجند ، همْ « الجند الشاكرية في تمرد وشغب ضد الأتراك الذين استبدوا بمقدرات الخليفة والخلافة . . ثم اقتحم الجمهور سجون العاصمة وأطلقوا سراح المسجونين فيها ! . . [2]

وبعد أن تخلص علي بن محمد من الاعتقال ظهر في مدينة « هجر » بالبحرين ، داعياً الناس إلى الثورة في نفس العام (سنة ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م) . . [3]

● ومن مصادر التاريخ نستشف أيضاً أن علياً بن محمد كان

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤١٠ . و(العبر) مجلد ٤ ص ١٩ . و(شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٢٧

(٢) محمد مختار باشا المصري (التوفيقات الالهامية) ص ١٢٥ . طبعة بولاق سنة ١٣١٠ هـ .

(٣) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤١٠ . و(العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .

من العلماء ! فالطبري يحكي أنه أثناء قتاله ، وهو يعبر نهر « برد الخيار » أخذ « اصطرلاباً » ـ آلة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية (ـ فقاس به الشمس ، وحدد الوقت ، فتنبأ باتجاه الريح فيما سيلي من الوقت ، ثم رسم خطته في المعركة على هدى منها ، ومستفيداً من آثارها . . فبعد قليل من نشوب القتال هب الريح من غربي نهر « دجيل » فدفعت سفن أعدائه نحو الشاطىء فاندفع إليها جنوده فقتلوا من فيها ؟ ! [1]

وكذلك صنع عند اقتحامه للبصرة ، عندما « نظر في حساب النجوم ، ووقف على انكساف القمر ليلة الثلاثاء ١٤ شوال سنة ٢٥٧ هـ . . فتنبأ بتوقيت نصره على مخالفيه »[2]

● وأنه كان فصيح اللهجة شاعراً « مطبوعاً على الشعر » ، تنسب إليه أبيات ومقطوعات تناثرت في بعض مصادر التاريخ والتراث ، خصوصاً ما تعلق منها بالثورة وأعان الثوار على الصمود في القتال . . من مثل البيتين اللذين يتحدث فيهما عن بسالة المقاتلين من أنصاره ، وعن اتجاه ثورته وعدائها للملوك :

---

(١) المصدر السابق، جـ٩ ص ٤٢٣ .
(٢) المصدر السابق ، جـ٩ ص ٤٨١ .

وأنا لتصبح أسيافنا إذا ما انتضين ليوم سفوك
منابرهن بطون الأكف وأغمادهن رؤوس الملوك!

ومن مثل قوله في الغزل :

ولما تبينت المنازل بالحمى ولم أقض منها حاجة المتورد
زفرت إليها زفرة لو حشوتها سرابيل أبدان الحديد المسرد
لرقت حواشيها وظلت متونها تلين كما لانت لداود في اليد[1]

أما مذهب علي بن محمد ، واتجاهه الفكري ، والتيار الذي انتمى إليه من تيارات الفكر الإسلامي ، وتياراته الثورية بالذات ، فان مصادر التاريخ لا تذكر عنه شيئاً إلا في معرض الذم والقدح والهجوم ! . . ولحسن الحظ فان الروايات في هذا المجال لا تستعصي على النقد . من خلال المقارنة والتمحيص . .

● فالطبري والمسعودي وابن خلدون يقولون أنه كان على مذهب الخوارج ، الخوارج الأزارقة بالذات . . ولكن أدلتهم لا تنهض للبرهنة على صدق هذه الدعوى . .

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، (والأبدان ، مفردها : بدن ، وهي : الدرع القصيرة والدرع المرد ، المنسوج)

فمن أدلة المسعودي على ذلك أنه قد قال في إحدى خطبه : « الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر. ألا لا حكم إلا لله ! . . ولكن الخوارج ، رغم قولهم : لا حكم إلا لله ، وتسميتهم لذلك (بالمحكمة) . إلا أنهم لا ينفردون بهذا القول ، فكل المسلمين يتلون آيات القرآن الكريم التي تقول : (إن الحكم إلا لله) [1] والخوارج لم يكونوا يرددون عبارة : « لا حكم إلا لله » على هذا النحو ، إلا في وقت « التحكيم » ، الذي أنكروه ورفضوه، في النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . .

ويستدل المسعودي كذلك ، على أن علي بن محمد كان على مذهب الخوارج ، بأنه كان يقتل خصومه ، بمن فيهم النساء والأطفال والشيوخ ! . .

لكن الطبري ، في الكثير من الصفحات التي يسجل فيها وقائع الثورة والقتال بينها وبين الدولة يتحدث عن الأسرى الذي أسرتهم الثورة ووضعتهم في سجونها ، وبينهم الكثير من المقاتلين ، فضلاً عن حديثه الكثير عن استرقاق النساء . . الأمر

---

(١) الأنعام : ٥٧ ، يوسف : ٤٠ ، ٦٧.

الـذي ينفـي عن الثـورة الالتـزام بمذهـب الخـوارج في قتـل الخصوم . .

كما يذكر الطبري في مواطن عدة ـ عرضاً وفي ثنايا الأخبار ـ ما ينفي عن ثورة الزنج تهمة سفك الدماء دون تمييز والمغـالاة في القتل عند القتال . . ففي طريق جيش الثـورة للاسـتيلاء على « القـادسية » ، خرج رجـل من هذه القـرية فقتـل رجـلاً من الثوار ، فهمّ الثوار أن يأخذوا أهل القرية بجريمة ذلك الرجل ، فنهاهم عن ذلك علي بن محمد . . ولما قالوا له :

ـ إئذن لنا في انتهاب القرية ، وطلـب قاتـل صاحبنـا . . .
(قال لهم :) ـ

ـ لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ؟ . . . . ونسألهم أن يدفعوه إلينـا ، فإن فعلوا ، وإلا ساغ لنا قتالهم ! [1] .

وعندما دخل قرية « الجعفرية » ، وأسر أصحابـه نفـراً من أهلها ، ونهبوا شيئاً من متاعها ، عارض هذا المسعى ، الذي لم

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤١٥ .

يكن له ما يسيغه ، فأطلق سراح الأسرى بعد أن « وبخهم » ، ورد ما نهب من قريتهم ، وقال لأصحابه : « ألا برئت الذمة من انتهب شيئاً من هذه القرية أو سبى منها أحداً ، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة [1] » .

ولقد ظفر رجاله بألف وتسعمائة سفينة ، عليها حجاج يقصدون مكة ، عن طريق البصرة ، فلم يأسرهم ولم يستول على أموالهم ومتاعهم ، وإنما « ناظرهم » ، وعرض عليهم أفكاره ومبادىء ثورته ، وبحث بينهم عن جنود للدولة أو أموال تخصها ، إذ « استحلفهم أنه لا مال للسلطان معهم ولا تجارة » . فلما قالوا له : « معنا رجل من أصحاب السلطان » . لم يأخذ الرجل بشهادة زملائه عليه ، بل أطلق سراحه هو الآخر عندما حلف له أنه ليس من رجال الدولة وأنصار السلطان « فخلى سبيله وأطلق الحجاج فذهبوا . . »[2] « . . وعندما عدل أهل «عبادان» عن قتال الزنج ، بعد تجربة «الابلة» وهزيمتها قام الزنج بتحرير ما في « عبادان » من الرقيق ، واستولوا على ما

(١) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٤٢٠ .
(٢) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

فيها من سلاح ، ولم يتعرضوا للناس بمكروه [1]

فقتال الثـورة كان ضد الدولـة وأنصارهـا ، وعداؤهـا كان للسلطان ورجاله ، ولم يكن هناك خلط بين جهاز الدولة وجيشها ومالها وبين عامة الشعب وجمهور الناس .

أمـا العنف والقسـوة في معاملـة الخصـوم ، والتـي حكاهـا المؤرخون عن ثورة الزنج ، فعلاوة على أنها كانت طابع العصر وسنته ، فإنها لم تكن خاصية اختص بهـا الثـوار . . وروايات هؤلاء المؤرخين تتحدث عن تعذيب أسرى الزنج الذين رفضوا خيانة قائدهـم وإفشـاء ما يعرفـون عن دفاعاتـه وحصونـه من أسرار ، وكيف كانوا يصلبـون أحياء . . وكيف كانـت جثثهـم تعلق حتى تنتفخ وتتقشر جلودهـا وتـزكم رائحتهـا الأنـوف . . وكيف كانوا يذبحون ذبح الشاة . . بل وتحكي هذه الـروايات كيف أن الموفق وابنه أبو العباس كانوا « يشوون » أسرى الزنج على النار ، وهم أحياء ، كما يشـوى « الكبـاب » . . صنعـوا ذلك مع القائد الزنجي « قرطاس » ، فوضعوا في دبره سيخاً من حديد ، وأخرجـوه من فمـه ، وشـووه على النـار مثـل

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٤٣ .

« الكباب » . . وكانوا يسمونه « كردناج » [1] . ؟ فلم يكن العنف وقفاً على الثوار ، وإن تكن البشاعة اختصت بأعداء هؤلاء الثوار . .

وأيضاً يستدل المسعودي على دعواه أنهم كانوا خوارج بأن (المهلبي) علي بن أبان،وهو من قادة الثورة،خطب الجمعة يوماً فدعا لقائده :علي بن محمد،وترحم على أبي بكر وعمر ، ولم يذكر عثمان ولا علياً . . ولعن جبابرة بني العباس ، وأبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان [2]

ونحن نقول : أن هذا الموقف هو أقرب إلى مذهب كثير من المسلمين الذين « توقفوا » في الحكم على كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعلى ما حدث في عهدهما من أحداث وصراعات . . وليس هذا « التوقف » بمذهب أي من فرق الخوارج ، وفرقة الخوارج الأزارقة بالذات . . فهم يؤيدون

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢١١ ، ٢١٢ . (وتذكر بعض الروايات ـ مثل المسعودي ـ أن العباسيين صنعوا ذلك بعلي بن محمد . . انظر نفس المصدر . . ذات الصفحات) .

(٢) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٧٠ ، ٤٧٨ . وانظر كذلك : بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ٢١٥ . طبعة بيروت ١٩٦٨م .

ويثنون (يتولون) ـ أبا بكر وعمر ، وأيضاً عثمان في الشطر الأول من سنوات حكمه ، وعلياً قبل حادثة « التحكيم » ، ثم يتبرأون منهما بعد ذلك ، من عثمان بعد ما حدث في سنوات حكمه الأخيرة من أحداث رأوها خارجة عن نهج الإسلام في العدل ، ومن علي بعد قبوله « التحكيم » .

فخطبة « المهلبي » هي إلى مذهب « التوقف » أقرب منها إلى مذهب الخوارج . . فليس فيها دليل على دعوى المسعودي . . ثم إن الطبري يذكر أن علي بن محمد قد كانت داره ، في عاصمة دولته وثورته (المختارة) ، بالقرب من سوق اسمها : « سوق الحسين [1] ، ورأي الخوارج في آل البيت لا يعقل معه أن يطلقوا أسماء أئمتهم على الأسواق والأحياء في عواصمهم .

ونفس المصادر التي تقول : أن علي بن محمد وثورته كانوا على مذهب الخوارج ، والأزارقة ـ الغلاة ـ منهم بالذات ، تناقض أنفسها وتنقض دعواها عندما تقول أن علي بن محمد لم يكن صادقاً في انتسابه إلى آل البيت وإلى العلويين منهم على وجه

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٦٣١ .

التحديد [1] ... فلو كان خارجياً لما انتسب ، زوراً ، إلى العلويين ، فرأي الخوارج في العلويين ، غير طيب وهم لا يقيمون للنسب وزناً حتى يسعون لادعائه ! .. وأيضاً فلو كان علي بن محمد « مدعياً » في انتسابه للعلويين ، لكان ذلك دليلاً على إعلائه لشأن هذا النسب ، وذلك ينفي تمذهبه بمذهب الخوارج ..

وهم يذكرون أن علي بن محمد وثورته كانوا يسيئون معاملة الأسيرات من آل البيت ، ويسترقونهم في منازل الزنج [2] .. ولو صح هذا ـ وليس بغريب على العصر وحدة الصراع ـ فهو ينقض تهمة « إدعاء » النسب العلوي فمن يحرص على ادعاء هذا النسب ويسعى لاستثماره لا يصنع ذلك بالحرائر من نسل الحسن والحسين ..

وتذكر هذه المصادر كذلك أن جماعة من العلويين فيهم علي بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي ، وعبدالله بن علي ، قد انضموا ، في

---

(١) (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .

(٢) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٤٤٩ .

البصرة ، إلى ثورة الزنج وقائدها[1] . . . وذلك ينفي عن هذه الثورة دعوى تمذهبها بمذهب الخوارج! . . ودعوى انتحال قائدها للنسب العلوي ! . .

ونحن نميل إلى أن علي بن محمد صادق في انتسابه إلى العلويين ، فليس في أحداث ثورته ، كما ذكرتها المصادر ـ وهي غير متعاطفة معه ، بل معادية له ـ ما يشتم منه أنه كان « مستغلاً » لهذا النسب في شد أزر دعوته وتدعيم قوة ثورته . . كما أنه ليس في أحداث هذه الثورة ما يدل على تمذهبها أو تمذهب قائدها بمذهب الخوارج . . .

ونحن نلمح في الطبري عبارة عابرة ، لعل فيها المفتاح لكشف مذهب هذه الثورة واتجاهها الفكري . . يقول الطبري : « وكانت أعلام صاحب الزنج بيضاء . . وكانوا مبيضة ؟! [2] . .

فأعلام الثورة كانت بيضاء اللون . . وعليها كتبوا بالأحمر والأخضر: (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤٨٧ .
(٢) المصدر السابق : جـ٩ ص ٦٣٢ .

لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله[1] ! . . وكتبوا كذلك اسم : علي ابن محمد[2] . . . واللون الأبيض كان لون ثياب هؤلاء الثوار ! . . ومعروف أن اللون الأسود كان شعار العباسيين ـ كانوا مسودة ـ منذ ثورتهم على بني أمية . . ونحن نجد في تراث الثورة وتاريخها منذ بداية العصر العباسي أن اللون الأبيض كان شعار الثورة التي قادتها النفس الزكية ، محمد بن عبد الله بن الحسن (٩٣ ـ ١٤٥هـ/٧١٢ ـ ٧٦٢م) ضد أبي جعفر المنصور (٩٥ ـ ١٥٨هـ/ ٧١٤ ـ ٧٧٥م) . . وهي ثورة قام بها المعتزلة ، وقادها إمام من أئمتهم كان في ، ذات الوقت علوياً ، وكان أيضاً ممن قاتلوا في ثورة زيد بن علي ضد الأمويين[3] . . فاللون الأبيض كان شعار التيار الذي ثار أصحابه ضد العباسيين ، والذي كانت قياداته ، غالباً ، لأئمة علويين ، ومن نسل زيد ابن علي بالذات ، لأن هذا الفريق من آل البيت قد ارتبط بفكر المعتزلة ورأيهم المنحاز للثورة ، على عكس الشيعة الامامية

---

(١) التوبة : ١١١.

(٢) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٤١٣ .

(٣) انظر كتابنا (المعتزلة والثورة) ص ٩٩ ـ ١٠٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م. وكذلك دراستنا عن « النفس الزكية » . . مجلة الهلال . عدد مارس سنة ١٩٧٧م.

الذين أحجموا عن الثورة ، منتظرين « المهدي » والغائب المنتظر !

فهل كان علي بن محمد ، وكانت ثورته حلقة في سلسلة ثورات العلويين الزيدية الذين تمذهبوا بمذهب المعتزلة في الأصول الخمسة ، التي كانت هي نظريتهم الفكرية ؟؟ . . إننا نميل إلى ذلك ، خاصة وأن « التوقف » في الحكم على كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب كان موقفاً معروفاً في صفوف الاعتزال . . [1] وهو الموقف الذي تشير إليه الخطبة التي أوردها المسعودي ، للمهلبي ، أحد قادة ثورة الزنج .

وبسبب من حجم العنصر البشري الزنجي في هذه الثورة ، جمهوراً وقادة ومقاتلين ، وهو الحجم الذي جعلها تشتهر « بثورة الزنج » ، شاع ، في عدد من الدراسات واستقر في أفهام الكثرة من الناس أنها كانت ثورة زنجية ، أي عنصرية ، أشعلها الزنج ضد سادتهم من العرب الأثرياء وملاك الرقيق . . ومن هنا كان منطلق بعض النقد الذي وجه لها والرفض الذي حط من القدر

---

(١) الخياط (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) ص ٩٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م . وانظر كتابنا (المعتزلة وأصول الحكم) ص ٢٠٨، ٢٠٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.

الذي بلغته ومثلته في تراثنا الثوري وتـاريخنـا النضالي . . ومن هنا أيضاً جاء تشبيهها بثـورة (إسبارتاكوس) التي كانت صورة عبيد ضد السادة الأحرار وضد دولتهم . .

وبـادىء ذي بدء . . . فإن هذه الثـورة لو كانـت « ثـورة زنج » ، اشتعلت لتحريرهم من مظالم سادتهم وقسوة مالكيهم لما انتقص ذلك شيئاً من قدرها ولما وضع من مكانها في التاريخ الثوري عند العرب والمسلمين ، فكفاهـا شرفـاً ، بل وتشريفـاً لتراثنا الحضاري إن جعلت له ولأهله ثورة كبرى قامت لتحرير العبيد !

غير أن حقائق هذا الجانب من جوانـب هذه الثـورة تضيف إليها قسمات تعطيها طابع الشمول الإنساني ، وتتعدى بها إطار الطموح العنصري للزنج والعبيد . . فهي ثورة عربية إسلامية ، نهض بها عرب مسلمون ، زنوجاً كانوا أم غير زنوج . . ومصادر التاريخ حاسمة في الدلالة على هذا الذي نقول . .

- فعلي بن محمد قد بدأ الدعوة إلى الثورة سنة ، **٢٤٩** هـ ضد الدولة العباسية ، وكانت هذه الدولـة ، يومئـذ ، دولـة أتراك أعاجم مماليك ، تستر قبحها ومظالمها وعجمتها بعباءة الخلافـة

العباسية التي لم يكن لخلفائها من السلطة والسلطان ما يتعدى التوقيع على الرقاع والمراسيم ! . . فلم تكن دعوته للثورة ، إذن ، موجهة ضد العرب أو الدولة العربية . .

ـ وهو عندما دعا إلى الثورة بدأ بدعوة العرب من أهل مدينة « هجر » ، عاصمة البحرين . . فكان المستجيبون الأول لدعوته الثورية، وكانت الطلائع الأولى لهذه الثورة من العرب أهل البحرين . . ومن « هجر » انتقل إلى ، الأحساء ، بمحاذاة « هجر » ، وهي موطن للعرب أيضاً ، فدعا إلى الثورة قبائلها العربية ، « ونزل بحي من تميم ، ثم من بني سعد ، يقال لهم بنو الشماس » ، فاستجاب هؤلاء العرب لدعوة علي بن محمد ، وانخرطوا في صفوف الثورة ، وقاتلوا معه عمال الدولة وأعوان السلطان ، وبعبارة الطبري التي يصف بها انتشار الثورة ، في مرحلتها الأولى هذه . بين هذه القبائل العربية : « . . . وأحله أهل البحرين من أنفسهم محل النبي ! حتى جبي له الخراج هناك ، ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا ، أسباب السلطان بسببه ! . . أي أن الشكل الأولي والنموذج الأول لدولة هذه الثورة قد قام بين العرب ، وبواسطتهم . . ولم يكن لعنصر « الزنج » حتى ذلك الوقت وتلك المرحلة أي دور أو ذكر في

أحداث هذه الثورة . . وعندما تصدت الدولة لحرب علي بن محمد وأتباعه من عرب المدن في البحرين تحول من المدن إلى البادية . . أي إلى محيط عربي كذلك . . وظل يتنقل في البادية من حي عربي إلى حي عربي آخر . . ولا ذكر في هذه المرحلة لدور الزنج في هذه الثورة ولا وزن لهم في أحداثها . .

ولقد استمرت هذه المرحلة من حياة هذه الثورة ، بطبيعتها العربية هذه ، خمس سنوات ، أي حتى معركتها ضد جيش الدولة عند « الروم » - (موقع بالبحرين) - وهي المعركة التي انتصرت فيها الدولة على الثورة ، فقتل كثير من أنصار علي بن محمد ، وهم عرب ، فتراجعوا عن نصرته ، وبعبارة الطبري : « . . . فنفرت منه العرب » [1] .

- وبعد هزيمة « الروم » انتقل علي بن محمد إلى البصرة . . وفيها كان توجهه بالدعوة إلى العرب ، أيضاً كي ينخرطوا في الثورة على الدولة . . فلقد « نزل في بني ضبيعة » - وهي قبيلة عربية من نزار بن معد بن عدنان - فكان له فيهم أنصار ، أصبح بعضهم زعماء في الثورة وقادة في جيشها وأبطالاً مبرزين في معاركها ، من مثل الأخوة : علي بن أبان - (المعروف

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

بالمهلبي) وكان قائد القواد وأمير الأمراء في الثورة ـ ومحمد بن أبان ، والخليل بن أبان . . وغيرهم [1] . .

ـ وفي البصرة طاردت الدولة ، وعاملها محمد بن رجاء الحضاري ، علي بن محمد وأنصاره ، ودخل السجن عدد من أتباعه ، وفيهم ابنه الأكبر وابنته وزوجته فترك البصرة ، مع عدد من قادة الثورة ، ذاهبين إلى بغداد ، وفي الطريق إليها وقعوا بيد عامل السلطان على « واسط » : محمد بن أبي عون ، ثم استطاعوا التخلص من قبضته ، وواصلوا رحلتهم إلى بغداد ، فأقاموا بها عاماً كاملاً . . [2]

ـ ثم حدثت في البصرة أحداث جعلت علي بن محمد يعود إليها من بغداد . . فلقد حدث صراع وشبت فتنة بين طائفتين من جنود الدولة بها : « الجند البلالية ، والجند السعدية » وفي هذا الصراع أطلق سراح السجناء في سجون البصرة ، ومنهم أنصار علي بن محمد فرجع ليقودهم ، ويواصل بهم ثورته ، لقد وصل وقت السحر مع ليلة السبت ٢٩ رمضان سنة ٢٥٥ هـ (١٠

---

(١) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٤١١ .
(٢) المصدر السابق . جـ٩ ص ٤١٢ . و(شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٣١ .

سبتمبر سنة ٨٦٩ م) . . فنزل مع أصحابه بمكان من أرض البصرة يسمى « برنخل » على النهر المسمى عمود ابن المنجم . .

- وفي هذه المرحلة من مراحل الثورة ، أي بعد قرابة السبع سنوات على بدئها ، بدأ انعطافها نحو الزنج . . . وكان ريحان ابن صالح أول زنجي ينخرط في الثورة . . [1] فمن معسكر الثوار حول البصرة « وجه علي بن محمد دعوته إلى العبيد من الزنوج . . فاجتمع إليه بشر كثير من الغلمان » الذين كانوا يعملون في ظروف عمل بالغة القسوة ، بمواطن سيل الماء ، يكسحون السباخ والأملاح عن الأرض كي تخصب وتجود وتزرع ، في نواحي الفرات الجنوبية . . قام علي ابن محمد خطيباً في هؤلاء الزنوج فحدثهم عن أهداف ثورته بالنسبة لهم ، وتتلخص في تحريرهم من الرق ، وتحويلهم إلى سادة لأنفسهم ، يتولون الرئاسة ويمتلكون الأموال . . بل ويمتلكون ظالميهم ومستغليهم ! . . ولقد اجتهد كي يكتسب ثقتهم ، فأقسم لهم « ألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، وأن يملكهم الأموال والضياع ، ولا يدع شيئاً من الاحسان إلا أتى إليهم ! » .

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٣٢ .

ولقد توافدت إلى معسكر الثوار أفواج من العبيد . . وبعبارة ابن خلدون : « تسايل إليه الزنوج واتبعوه ! » . . وشرع يطوف على مواقع عمل الزنوج ، في مسايل الماء ، حيث يكسحون الملح ، فيقبض على وكلائهم ، ويوثقهم ، ويضم إلى جماعته ما بعهدتهم من الغلمان وانزعج السادة ملاك العبيد ، فذهب وفد منهم إلى قائد الثورة يساومونه على رد عبيدهم إليهم لقاء مال يدفعونه إليه . . ولقد دار بينه وبين سادة العبيد ومواليهم ووكلائهم حوار بدأه بقوله :

ـ لقد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليم ما لا يطيقون . فكلمني أصحابي فيكم ، فرأيت إطلاقكم . .

ولكنهم أرادوا مساومته ، فقالوا له :

ـ إن هؤلاء الغلمان أباق ـ (فارون من سادتهم) ـ وهم يهربون منك ، فلا يبقون عليك ولا علينا ؟ـ فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا ! . .

فغضب علي بن محمد ، وأمر الغلمان بإحضار سعف النخل

الأخضر ، وبأن يطرح كل جماعة من العبيد سيدهم السابق أو مولاهم أو وكيلهم ويضربوه خمسمائة جريدة ؟!

وبعد أن أدبهم ، أطلق سراحهم ، بعد أن أخذ عليهم الايمان أن لا يكشفوا لقواد الدولة عن مكان معسكره ولا قوة عسكره !. .

ثم عبر بمن اجتمع اليه من الغلمان نهر « دجيل » . . وفي يوم عيد الفطر رفع لواء ثورته الأبيض ، وعليه قد كتبت ، بالأحمر والأخضر ، آية : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) . . واسمه واسم أبيه . . وصلى بهم صلاة العيد ، وخطبهم خطبته فأكد لهم أهداف ثورته في تحريرهم « وذكر لهم ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأن الله قد استنقذهم ، به وبالثورة ، من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم . . ويبلغ بهم أعلى الأمور ، وحلف لهم على ذلك !. . »

ويبدو أنه قد كانت للزنج تجارب مريرة مع ثوار وثورات سبقت ثورة علي بن محمد ، الأمر الذي جعل الحصول على ثقتهم أمراً غير يسير . . ولقد علموا أن أحد أركان الدولة قد بعث إلى

قائد الثورة يعرض عليه أن تكف الدولة عن مطاردته وحربه ، وأن تؤمنه هو وأصحابه في أي مكان توجهوا اليه ، شريطة أن يرد العبيد إلى سادتهم وملاكهم ، وله عن كل عبد خمسة دنانير ! . . « أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض ، لا يعرض لك أحد ، وأردد هؤلاء العبيد على مواليهم ، وآخذ لك عن كل رأس خمسة دنانير ! . »

فغضب علي بن محمد ، وأقسم ليعاقبن صاحب هذه الرسالة « ليحرقن داره ، ويبقرن بطن امرأته ، وليخوضن الدماء هناك ! » . . واجتهد لطمأنة العبيد على صدقه وصدق الثورة في تحريرهم . . . وأعلمهم أنه لا يردهم ولا أحداً منهم إلى مواليهم ، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغلاظ ، وقال : ليحط بي منكم جماعة ، فان أحسوا مني غدراً فتكوا بي ؟! . . وأعلمهم أنه لم يخرج لغرض من أغراض الدنيا ، وما خرج إلا غضباً لله ، ولما رأى عليه الناس من الفساد في الدين . وقال لهم : ها أنا معكم في كل حرب ، أشرككم فيها بيدي ، وأخاطر معكم فيها بنفسي ! » .

ولقد كان الغلمان الذين انخرطوا في الثورة طوائف ، جمعهم الرق أو الفقر أو هما معاً ، وميّزت بينهم الأصول . . ففيهم :

الزنج ، وفيهم التوبة ، وفيهم القرماطيون ، وفيهم الفراتيون العرب . . ومن عدا الزنج منهم كانوا يفهمون العربية ويتكلمونها ، فكانوا ينقلون أحاديث علي بن محمد وخطبه الى الزنوج . .

ولقد أدرك الغلمان ، بعد تجاربهم المطمئنة مع هذه الثورة وقائدها ، أنهم بازاء ثورة قد صدقتهم الوعد وقائد يعني ، حقاً ، ما أعلن لهم من مبادىء وأهداف« فرضوا عنه ، ودعوا له بالخير ! . . . »

ولقد طارت أنباء تلك الثقة التي توطدت بين الزنج والثورة إلى مختلف مواقع العمل التي يعمل بها العبيد ، فشرعوا في الهرب من سادتهم واللحاق بمعسكرات الثورة ، حتى لقد كان سادتهم يحبسونهم في البيوت ويسدون عليهم أبوابها بالبناء أو بالطين كي يحولوا بينهم وبين الهرب الى معسكرات الثوار ؟! . .

وكان بجيش الدولة فرق وحاميات زنجية ، أخذت تنسلخ عن الجيش وتنضم إلى الثوار كلما حدث قتال بين جيش الدولة وبين الثوار حتى أصبحت هذه المعارك وكأنها عملية « تسليم » للعبيد إلى الثورة يقوم بها جيش الدولة ؟! . . وحتى قال علي بن

محمد لأصحابه : « ان من امارات تمام أمركم ما ترون من إتيان هؤلاء القوم بعبيدهم فيسلمونهم إليكم ،فيزيد الله في عددكم »[1]

هذا عن مكان الزنج في الثورة . . لقد دعتهم فالتحموا بها في المرحلة الثانية من مراحلها . . . وكانت بالنسبة لهم : تحريراً من الرق وإنقاذاً من استغلال السادة والموالي ، والوكلاء ، بصرف النظر عن جنس هؤلاء السادة والوكلاء وأيضاً ، فإن هذه الثورة لم تكن وقفاً عليهم ولا خاصة بهم » .

. . . لقد كان لهذه الثورة شرف القتال لتحرير الوطن وإن لم يكن هذا هو هدفها الوحيد . . فلم تكن ثورة عنصرية قام بها الزنج ضد العرب ، وإنما كانت ثورة عامة للذين اختاروا الصراع العنيف طلباً للعدل والحرية ورفضاً لسيطرة الأعاجم الأتراك على الخلفاء العباسيين واستئثارهم بخيرات البلاد .

ولم يعن هذا الدور المتعاظم للزنج في الثورة انحسار دور غيرهم ، وخاصة العرب ، في قيادتها وجيشها . . ففي كثير من

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٤١٠ - ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ - ٤٣٠ . و(العبر) مجلد ٤ ص ١٨ ، ١٩ و(تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٢١٥ . و: فيليب حتي (تاريخ العرب) « مطول » ص ٥٦١ . طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م.

أحداثها وأخبارها نطالع دور العنصر العربي بل ودوره القيادي

ففي اقتحام الثوار للبصرة (شوال سنة ٢٥٧ هـ/٧ سبتمبر سنة ٨٧١م) نهضت الأعراب بدور رئيسي في الاقتحام . وكان علي ابن محمد قد عهد إلى سليمان بن موسى الأشعري ـ من قادة جيشه ـ بتمرينهم وقيادتهم . . وبعد يومين من القتال انحاز أهل البصرة ـ وهم عُرب ـ إلى صفوف الثوار! [١] . .

ـ وكذلك تذكر الروايات دور العرب في الثورة وقتالهم في صفوفها ، بمناسبة الحديث عن معركتها ضد جيش الدولة عند الخزيرانية ، على نهر جبى ، تلك المعركة التي قتل فيها من جيش الثورة خلق كثير وبعبارة الطبري : قتلت فيها الدولة . . من البيضان والزنج خلقاً كثيراً ! . . [٢]

ـ كما تذكر أخبار الثورة دور القبائل العربية في نصرتها والقتال بجيشها من مثل الباهليين و« بني تميم » فلقد كانوا يقاتلون مع الزنج جنباً إلى جنب [٣] !

كما لعبت الاعراب ـ من التجار ـ دوراً بارزاً في إمداد

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٤٨٢ .
(٢) المصدر السابق . جـ٩ ص ٤٩١ .
(٣) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٥٢٢، ٥٢٣، ٦٠٧ .

الثورة ، مدناً وجيوشاً ، بالمؤن ، وخاصة في ، شدائد القتال والحصار[1] . .

فلم يكن دور العرب بأقل من دور الزنج في الثورة كما لم يكن دور أي من العنصرين منفصلاً عن دور الآخر ، لأنها كانت ثورة واحدة ، وعامة ، ولم تكن العنصرية ملحوظة ، بأي حال من الأحوال ، في مبادئها أو في صنوف الثائرين بها .

ولقد استطاعت جيوش الثورة أن تلحق الهزائم الشديدة بجيوش الدولة في عشرات المعارك التي دارت بينها ، وثمرة لهذا القتال الضاري امتدت رقعة الدولة والسلطة التي أقامتها الثورة إلى مساحات كبيرة ومدن وقرى عديدة في كل من العراق والخليج وفارس . . من مثل :

- البحرين ، مدناً وبادية . . وهي ولاية على الشاطىء الغربي للخليج .

- والبصرة . . وهي من أشهر المدن وأهمها بجنوبي العراق . .

---

(١) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٦٠٣ - ٦٠٦ . و(تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٢١٦ .

ـ والأبلة . . على شاطىء دجلـة البصرة ، في زاوية الخليج عند دخوله إلى البصرة .

ـ والأهواز . . بفـارس ، وكانـت تشمـل عدة كور » ، ـ (قرى) ـ كبيرة .

ـ والقادسية . . قرب الكوفة . .

ـ وواسط . . بين البصرة والكوفة . .

ـ وجنبلاء . . بين واسط والكوفة . .

ـ وباذاورد . . مدينة قرب واسط . .

ـ والنعمانية . . على دجلة ، بين واسط وبغداد . .

ـ والمنصورة . . بطهيثا . . وهم قد بنوها ضمن ما بنوا من مدن جديدة حصينة . .

ـ وجرجرايا . . من أعمال النهروان الأسفل ، بـين واسـط وبغداد ، من الجانب الشرقي .

ـ وجبل . . على جانب دجلـة من الجانـب الشرقـي ، بـين النعمانية وواسط .

ـ ورامهرمز . . احدى مدن خوزستان . .

ـ والمنيعة . . بنهر الخميس وكانت ثانية مدن الزنج ، بعـد عاصمتهـم (المختـارة) . . وهـي من إنشائهـم ، مثـل

العاصمة . .

- والمذار . . بين واسط والبصرة . . .
- وتستر . . أعظم مدن خوزستان . .
- والبطيحة . . وهي منطقة بها عدة قرى متصلة بين واسط والبصرة . .
- وخوزستان . . وهي مقاطعة ببلاد فارس . . .
- وعبادان . . وهي جزيرة مثلثة في فم دجلة البصرة.
- وأغلب سواد العراق ، أي ريفها . .

وأنشأت الدولة الثورية عاصمة لها سمتها - (المختـارة) ، بنوها أولا باللبن ، في منطقة تتخللها القنوات وفروع الأنهار وتمتلىء بالمستنقعات ، ثم ، حصنوها وجهّزوها بما غنموه أثنـاء القتال . . حتى لقد أصبحت ، بمنعتها وحصانتها ، وما أحاط بها من خنادق وأسوار ، ومـا نصـب على أسوارهـا من أدوات الحرب والمحاماة، عنواناً وبرهاناً على أن ثورة الزنج هذه ليست كغيرها من الهبات والثـورات التـي تكررت في ظل حكم بنـي العباس . . وبعبارة ابن أبي الحديد ، فان « أبو أحمـد » قائـد جيش الدولـة وأخـو الخليفـة ، لما رأى أسـوار (المختـارة) وتجهيزاتهـا « رأى ما لم ير مثلـه ممـن تقـدم من منازعـي

السلطان ! . . » ولذلك أعد لقتال هذه الثورة جيشاً قال شهوده يوم خروجه من بغداد : « لقد رأينا جيوشاً كثيرة للخلفاء ، فما رأينا مثل هذا الجيش ، أحسن عدة ، وأكمل عتاداً وسلاحاً ، وأكثر عدداً وجمعاً ! . . [1] »

وفي هذه الدولة ، التي أقامتها الثورة ، وضعت أهداف الثورة وتعاليمها موضع الممارسة والتطبيق . . ولم يشغلها القتال المستمر ، الذي لم يهدأ ، تقريباً ، منذ بدء الثورة سنة ٢٤٩هـ وحتى هزيمتها سنة ٢٧٠ هـ ، عن إقامة العدل الذي بشرت به ، والمساواة التي دعت إليها ، وتحرير الرقيق من استعباد الأشراف .

وبالرغم من أن أحداث القتال الدامي بين الثورة والدولة قد استأثرت باهتمام المؤرخين فغاب من صفحاتهم الحديث عن النظام المتميّز الذي أقامته الثورة على أرضها وفي دولتها ، إلا أننا نستطيع أن نستخلص من إشاراتهم أن هذه الثورة قد أقامت :

● **في السياسة :**

دولة قوية وكبيرة . . وإذا كانت « دنيا » الناس يومئذ كانت

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .

هي الامبراطورية العباسية ، فان المؤرخين يقولون : أن الزنج قد « اقتسموا الدنيا » ! . . واجتمع اليهم من الناس ما لا ينتهي العـد والحصر اليه . . وكان عمال الدولـة الثائـرة يجمعـون لقائدها ، علي بن محمد ، الخراج على عادة السلطان . . حتى لقد عظم الخطب وجلّ . . وخيف على ملك بنـي العبـاس أن يذهب وينقرض .[1]

وكان علي بن محمد هو « أمير المؤمنين » في هذه الدولة التي قامت متحدية لخلافة بني العباس التي سيطر عليها القادة الأتراك المماليك . .

● وفي الاجتماع :

كان نظام الدولة « جماعياً » ، يقوم على التكافـل بـين أبنـاء المجتمع ككل ، رافضاً الفلسفة الفردية وما أثمرت من مظالـم واستغلال في الاقتصاد والاجتماع . . ويشهد لذلك ما كتبه نظام الملك عن النظام الاجتماعي والمالي لهذه الثورة ودولتهـا ، فلقـد شبهها « بالمزدكية » التي قررت « الاشتراك » العمومي في الثروة

(١) المصدر السابق . جـ ٨ ص ١٦٤، ١٦٥ .

والمال بين الجميع [١] !

كما قامت هذه الثورة بتحرير العبيد ، سوداً وغير سود ، من الرق ، وحرّرت كل الفقراء الذين انخرطوا فيها من القهر الذي رزحوا تحته وهم يسخرون للعمل في كسح المياه المالحة من أرض جنوب العراق والخليج ، وتجهيز هذه الأرض لتدر الخصب والرخاء للسادة ، والأشراف . . فمنذ اللحظة الأولى لانعطاف هذه الثورة نحو الزنج وسعيها لتحريرهم كان همها دراسة أحوالهم البائسة والعمل لخلاصهم من البؤس الذي يرزحون تحت نيره . . ويحكي « ريحان بن صالح » وهو أول زنجي ينخرط في الثورة ، يحكي عن لقائه الأول بقائدها علي بن محمد فيقول : « لقد سألني عن غلمان الشورجيين - (العاملين في مجاري المياه) - وما يجري لكل جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر ، وعمن يعمل في الشورج - (مسابل المياه) - من الأحرار ، والعبيد ، فأعلمته ذلك ، قد عانى إلى ما هو عليه - (أي إلى الثورة) - ، فأجبته ، فقال لي : احتل فيمن قدرت

---

(١) نظام الملك « سياسة نامة » ص ٢٨٥ . انظر دراسة د. فاروق عمر فوزي عن « حركة الزنج وموقفها من الأصالة الثورية العربية » بمجلة « آفاق عربية » العراقية . عدد ١١ لسنة ١٩٧٧م.

عليه من الغلمان ، فأقبل بهم إلي ، ووعدني أن يقودني - (يجعلني قائداً) - على من آتيه به منهم ، وأن يحسن إلي ![1] ..

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٣٢ .

الصّراع وَالنهايَة

التاريخ العربي الاسلامي حافل بالثورات التي اشتعلت ضد كل من وبني أمية وبني العباس .. ولكنه لا يعرف نظيراً لثورة الزنج في القوة والاستمرار والعنف الذي تميز به صراعها مع الدولة منذ نشبت حتى اليوم الذي هزمت فيه ..

فثورة زيد بن علي (٧٩ - ١٢٢هـ/ ٦٩٨ - ٧٤٠م) ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك قد أعلنت في الكوفة قبل خمسة أيام من انتهاء شهر المحرم سنة ١٢٢ هـ (يناير سنة ٧٤٠م) . . . ثم هزمت بعد يومين من القتال ! . .

وثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن (٩٣ -

١٤٥ هـ/٧١٢ ـ ٧٦٢م) قد قامت ،بالمدينة ضد المنصور العباسي في أول رجب سنة ١٤٥ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٦٢م) . . ثم هزمت في ١٤ رمضان من نفس العام أي بعد شهرين ونصف من قيامها ! . .

وثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن (٩٧ ـ ١٤٥هـ/٧١٦ ـ ٧٦٣ م) أخو النفس الزكية ، أعلنت ، في البصرة ، ضد المنصور العباسي ، في أول رمضان سنة ١٤٥ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ٧٦٢ م) . . ثم هزمت في ٢٥ ذي القعدة من نفس العام ، أي بعد أقل من ثلاثة أشهر من قيامها ! . .

وعلى هذا النحو كانت أغلب الثورات ، بل لقد كانت هزيمة الكثير من هذه الثورات تتم في المعركة الأولى التي يلتقي فيها ثوارها بجيش الدولة الزاحف عليها لسحقها وتصفيتها . . وحتى ثورات الخوارج التي كانت شبه مستمرة ، فانها قد استمرت لما مثلته من حلقات متتالية من الانتفاضات والتمردات والهبّات . . كلما هزمت هبّة تبعتها ، بعد فترة ، هبّة أخرى وهكذا . .

ومن هنا تتميز وتمتاز ثورة الزنج عن كل هذه الثورات

تقريباً ، وتكاد أن تنفرد في تراثنا الثوري بالقوة والتأييد الذي ضمن لها البقاء ، في صراع شديد وبالغ العنف مع جيش الدولة ، منذ اندلاعها في سنة ٢٤٩ هـ (سنة ٨٦٣م) وحتى هزيمتها في سنة ٢٧٠هـ (سنة ٨٨٣ م) . . أي ما يزيد على العشرين عاماً . . كما تتميز بالدولة التي أقامتها ، والتي استمرت تقاوم منذ قيامها في سنة ٢٥٥ هـ (سبتمبر سنة ٨٦٩م) وحتى الهزيمة في سنة ٢٧٠هـ (سنة ٨٨٣م) .

ولقد بلغ الصراع بين الثورة وبين الدولة العباسية طوال هذه السنوات ، حداً من العنف والقسوة لم يحدث ما يشبهه في أية ثورة أخرى . . ولقد ظلت جيوش الدولة تمنى بالهزيمة تلو الهزيمة على يد الثوار حتى اضطر الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/٨٧٠ - ٨٩٢م) إلى تكريس كل موارد الدولة لحرب الزنج ، بل وإلى وضع السلطة الحقيقية في البلاد بيد أخيه أبو أحمد الموفق في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ . . ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة تسخر كل ما لديها لخدمة الجيش الذي شرعت في إعداده لمحاربة الثوار . . بل لقد أصبحت العاصمة الحقيقية للخلافة هي (الموفقية) التي بناها الموفق تجاه (المختارة) كي يمارس منها الاستعداد والقتال ، وأصبح

الموفق هو الخليفة الفعلي والحاكم الحقيقي في البلاد . . فلقد كتب إلى عمال الأقاليم والأمصار « بأن يحملوا الأموال إلى بيت ماله في (الموفقية) ، وألا يحمل إلى بيت مال العاصمة الرسمية درهم واحد ! » حتى لقد هم الخليفة . . المعتمد بالهرب من « سامراء » ، والذهاب إلى مصر كي يعيش عند واليها أحمد بن طولون ، فغادر عاصمته مع عدد من أمراء حاشيته وخاصة عماله ، ولما علم « الموفق » بذلك كتب إلى « ابن كنداجيق » أن يعترض طريقهم . ويلقي القبض على الخليفة ويعيده إلى دار الخلافة شبه سجين[1] . . وتم له ذلك ، وكان فيه التعبير عن المدى الذي بلغته الدولة في تكريس كل إمكانياتها لحرب ثورة الزنج . . لقد غدت السلطة الفعلية في كل مناحي السلطة وكل أنحاء الدولة لقائد الجيش ، كما أصبحت كل ثروة الدولة موقوفة على الاستعداد لقتال الثوار .

وكانت الحرب بين الثورة والدولة تدور في البر وفي الأنهار معاً ، لأن عاصمة دولة الثورة - (المختارة) كانت مبانيها

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٨٥، ٢٠٠ - ٢٠٢

تتناثر على شواطىء فروع نهر أبي الخصيب ـ كانت الجسور ـ (الكباري) ـ تربط أوصال العاصمة وعليها ، براً وبحراً ، تدور المعارك لفك ترابط هذه الأوصال ! . . وإلى جانب الخنادق كانت المياه تستخدم لإعاقة تقدم المحاربين . عندما تفتح لها الفتحات فتغرق السباخ ! . . وكانت فرق من الزنج تحارب حرب عصابات بحرية ! . . يستخدمون فيها القوارب الصغيرة الملائمة للقنوات الضيقة ، فاذا اشتدت المطاردة حملوا القوارب على ظهورهم واحتموا بالغابات أو المستنقعات !

كذلك كانوا يحفرون في طريق جيش الدولة الآبار ويضعون فيها السفافيد ـ (أسياخ الحديد التي يشوى عليها اللحم) ـ ثم يغطونها بالحصير المنسوج من القصب ، ويجعلون هذه الفخاخ حيث اعتادت الخيل أن تسير ، كي تسقط بفرسانها طعماً للسفافيد ![١]

وأمام الخسائر التي منيت بها الدولة ، والتي بلغت في معركة البصرة وحدها ثلاثمائة ألف قتيل ؟! فرض على مختلف الولايات والأقاليم أن تضع كل إمكانياتها في خدمة

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٦٩ .

القتال . . فجاءت الامدادات ، من الرجال والأموال والعتاد ، وبنيت سفن الحصار والنقل والقتال . .

ودارت بين الفريقين معارك يومية متصلة حلقات القتال فيها ، لا تعرف التوقف أو الهدنة أو الانقطاع . . وقدم الثوار نماذج من البطولة اضطر خصومهم إلى الاشارة اليها من خلال الهجوم الذي شنوه عليهم والسباب الذي التزموه أثناء وصفهم لأحداث الصراع . . ففي تاريخ الطبري نلتقي بعبارات كثيرة مثل :

« وقاتل الفسقة أشد قتال ! » . . « وصبر الفسقة وقاتلوا ! » . . « وصبر الفسقة أشد صبر ! » . . « واشتدت محاماة الفسقة ![1] » . .

وفي أحد المواطن يتحدث الطبري عن بسالة الثوار في الدفاع عن أحد مساجد عاصمتهم (المختارة) ، فيقول بأسلوب شديد العداء للزنج : « أمر أبو العباس الموفق قائد جيش الدولة ـ أصحابه بالقصد إلى الموضع الذي كان

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٦٢٥، ٦٢٩، ٦٣٥، ٦٥١

الخبيث ! - (علي بن محمد) - اتخذ فيه بناء سماه مسجد الجامع ، فاشتدت فيه محاماة الفسقة عن ذلك والذب عنه ، بما كان الخبيث يحضهم عليه ، ويوهمهم أنه يجب عليهم نصرة المسجد وتعظيمه ! . فيصدقون قوله في ذلك ، ويتبعون فيه رأيه ، وصعب على أصحاب الموفق ما كانوا يرومون من ذلك ، وتطاولت الأيام بالحرب على ذلك الموضع ! وصمد مع الفاسق يومئذ نخبة أصحابه وأبطالهم والموطنون أنفسهم على الصبر معه ، فحاموا جهدهم ، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط ، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم ، فيدخل الخلل على سائر أصحابه ؟![1] » .

هكذا كانت تدور الحرب . . أيام من القتال الضاري على موقع واحد وصغير ، ومقاتلو الثورة لا يتزحزح أحدهم عن موقعه قيد أنملة ، والحي يأخذ مكان من مات « حتى لا يخلو موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر أصحابه ! » .

ووسط هؤلاء المقاتلين كان قائدهم علي بن محمد « في

---

(١) المصدر السابق، جـ٩ ص ٦١٩ .

دراعة وعمامة ونعل وسيف ، وترسه في يده ! » يحارب معهم ، ويشد من أزرهم ، ويجمع من يتفرق منهم بالبوق![1] . . فلقد كان علي بن محمد ثائراً لم تقف ثورته عند « الرفض النظري » لمظالم عصره ، بل وضع هذا « الرفض » في التطبيق عندما لم يكتف ، ككثيرين غيره ، بلقب « المهدي » و« الامام » ، مع الجلوس خلف الأستار ! . . لقد كان بطلا وطن نفسه على أن مكانه الملائم والطبيعي إما أن يكون فوق أعواد المنبر ، إماماً وثائراً . وإما في أحضان الثرى شهيداً من الشهداء ! . . وطن نفسه على ذلك وعندما استشعرت نفسه في موطن الخطر وساحات الحرب ما تستشعره نفس الانسان ، أي انسان في مثل هذه المواطن حدثها عن عزمه فقال :

وإذا تنازعني أقول لها قرى موت يريحك أو صعود المنبر
ماقد قضى سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذين لم يقدر[2]

---

(١) المصدر السابق جـ٩ ص ٤٣٣ . (والدراعة : نوع من الثياب هي عبارة عن جبة مشقوقة من الأمام) .
(٢) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٢٨ .

هكذا كان القائد . . وهكذا كان الرجال . .

بل لقد شاركت المرأة في هذه الثورة ، وأسهمت في القتال . . ويذكر الطبري أن نساء الزنج قد اشتركن في معارك اقتحام البصرة ، فكن يجمعن الآجر ويمدون به الرجال[1]! . .

وإلى جانب القتال كان علي بن محمد يمارس الدعوة إلى ثورته وينشر بين الناس مبادئها ، فيرسل من أصحابه « من يعظ الناس ويعلمهم بالذي دعاه إلى الخروج (الثورة)[3] » . . ويباشر رعاية اليقظة والانضباط في صفوف أنصاره وجنوده . . فبعد فتح « القادسية » جاءه الخبر أن نفراً من جنوده قد انشغلوا بما وجدوه فيها من خمر ونبيذ « فأتاهم ، وأعلمهم أن ذلك لا يجوز لهم ، وحرم النبيذ في ذلك اليوم عليهم ، وقال لهم : إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونها ، فدعوا شرب النبيذ والتشاغل به ، فأجابوه لذلك ! . . » فهو قد

(١) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٤٣٦ .
(٢) المصدر السابق . جـ٩ ص ٤٣٣ .

حرم النبيذ على جنوده ، مبالغة في اليقظة ، ومراعاة لضرورات القتال ، على الرغم من أن المذاهب الاسلامية ، التي حرمت الخمر ، قد أحلت شرب النبيذ !. .

وكان للثورة مجلس حرب ، وقيادة عسكرية ، تتألف من قواد ستة ، يجتمعون بقائد الثورة ، للتخطيط ولمتابعة تطورات القتال [1] . . وكان في مقدمة قادة هذا المجلس ، بعد علي بن محمد : علي بن أبان المهلبي قائد القواد وأمير الأمراء ، كما ضم هذا المجلس : سليمان بن موسى الشعراني ، وسليمان بن جامع ، وأحمد بن مهدي الجبائي ، ويحيى بن محمد البحراني ، ومحمد بن سلم .

كما كان لقائد الثورة « كاتب » يتولى ما يشبه منصب « الوزارة » ، هو محمد بن سمعان . . وكان علي بن محمد نموذجاً للقائد الذي يرعى حقوق معاونيه وقادة جيشه . . وعندما أصيب القائد أحمد بن مهدي الجبائي في القتال وحمل إلى (المختارة) رعى علي بن محمد تطبيبه فلما مات حزن عليه حزناً شديداً « وتولى غسله وتكفينه والصلاة عليه والوقوف

(١) المصدر السابق. جـ٩ ص ٤٢١ .

على قبره إلى أن دفن . . ثم أقبل على أصحابه فوعظهم ، وحدثهم عن موت الجبائي فقال : لقد سمعت وقت قبض روحه زجل الملائكة بالدعاء له والترحم عليه ؟! [1] . . »

فقد كان الترابط وثيقاً بين قائد الثورة وبين أركانها كما كانت ثقة هؤلاء القادة في أميرهم لا تعرف الحدود . .

وبعد أن اكتملت لجيش الدولة استعدادات لم يسبق لها مثيل في تاريخ تصديها للثورات ، استطاعت أن تحرز أول انتصاراتها ضد الثوار بانتزاع مدينة « المنيعة » ثانية مدنهم ، من أيديهم . . . . وبعدها دارت معارك ضارية في اقليم خوزستان . . ثم بدأت الدولة حصاراً محكماً ، برياً وبحرياً ، عسكرياً واقتصادياً . لمدينة (المختارة)، عاصمة الثوار . . ولقد بدأ الموفق حصاره للمختارة بجيش قوامه ٥٠٠٠٠ مقاتل ، و١٥٠ سفينة حربية عليها أكثر من ١٠٠٠٠ ملاح مقاتل !. . ثم أخذت تتوالى اليه الامدادات جنوداً وسفناً وعتاداً ، من مختلف الأقاليم . . جاءه من سامراء ١٠٠٠٠ جندي بسلاحهم ، وكذلك فعلت الأهواز والبحربن وفارس وغيرها من الأقاليم . . واستمر هذا

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٧٤ .

الحصار ما يقرب من أربع سنوات ! (من شعبان سنة ٢٦٧ حتى صفر ٢٧٠ هـ)[١] .

واستمرت المعارك طوال هذه السنوات الأربع واتخذت أشكالاً ضاربة ، وجديدة ، بل وطريفة في بعض الأحيان . .

ولقد بنى الموفق ، قبالة (المختارة) ، مدينة جديدة عالية التجهيز ، كي يمارس منها حصاره وقتاله ضد الثورة سماها : (الموفقية) . .

وعندما كانت سفنه تقترب من (المختارة) كان الثوار يرمونها بأدوات قتالهم ، بل ويصبون عليها الرصاص المذاب بالنار ، فاضطر إلى تغطية سفنه بسقوف من الخشب ألبسها جلود الجواميس وغطاها بالخيش المطلي بصنوف الأدوية والعقاقير التي تمنع الاحتراق[٢] .

وسدت المنافذ على (المختارة) فتوقفت إمداداتها بالأغذية والملابس والعتاد . . ثم أحرقت ، أثناء الغارات مخازن

---

(١) (العبر) مجلد ٤ ص ٢٠ .
(٢) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٦٢٣ .

الحبوب التي كانت بها . . حتى أضر الحصار بامكانيات المقاومة والصمود لدى الثوار . . ويذكر الطبري كيف « كان الأسير منهم يؤسر ، فيسأل عن عهده بالخبز ، فيعجب من ذلك ! ويذكر أن عهده بالخبز منذ سنة وسنتين »[1] ويستطرد ، في موطن آخر ، فيقول « . . حتى لقد أكلوا لحوم البشر منهم ومن أولادهم ونبشوا قبور الموتى ، فيبيعون أكفانهم ويأكلون لحومهم ؟ »

ولا ينسى الطبري أن يذكر أن ذلك كان محرماً في قانون الثورة ، ولكن الضرورة جعلت عقوبته الحبس فقط يقول : « وكان الخبيث - (أي علي بن محمد !) - لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا بالحبس ، فاذا تطاول حبسه أطلقه[2] » .

ومع ذلك ظلوا صامدين !! . .

ومع القتال ، بأدوات الحرب ، وبالحصار وبالجوع . . أخذت الدولة تغري أنصار الثورة وجنودها كي يهربوا من

---

(١) المصدر السابق. جـ٩ ص ٦٠٨ .
(٢) المصدر السابق، جـ٩ ص ٦٣١ .

عاصمتها ، إلى حيث الأمان وإغداق العطاءات . . وكانت تساعد من يريد الهرب على الهروب ثم تطعمهم بعد جوع ، وتكسوهم بعد عري ، وتركبهم الخيول المطهمة وتحملهم على السفن المزينة وتعرضهم أمام أسوار (المختارة) كي يراهم الثوار الجياع المحاصرون الصامدون ، إغراء لهم على الهروب مما هم فيه إلى حيث يطعمون من الجوع ويأمنون من الخوف[1] . .

وكان لا بد من نهاية لهذا الصمود الثوري الذي أصبحت له (المختارة) نموذجا نادر المثال . . مدينة محاصرة تصمد أمام امبراطورية ذات جيش جرار ، عالي التجهيز قرابة الأربع سنوات ! . .

وكانت مصر قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية ، تحت حكم أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠هـ/٨٣٥ - ٨٨٤م) وكان لابن طولون جيش بالشام يقوده لؤلؤ (غلام أحمد بن طولون) . . فخان لؤلؤ قائده أحمد بن طولون ، وسار بجيشه - وكان عظيماً وجراراً يضم جنوداً من الفراغنة ، والأتراك والروم والبربر والسودان بلغوا عشرة آلاف « من نخبة

(١) المصدر السابق جـ٩ ص ٥٨٨ ، ٦٠٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ .

الفرسان وأنجادهم [1] ! » . . فانضم إلى جيش الموفق الذي يحاصر الثوار في (المختارة) . . وعند ذلك أيقنت الدولة من قدرتها على اقتحام عاصمة الثورة . . فبدأ الهجوم ، من الجانب الشرقي للمدينة ، يوم الاثنين ٧ ذي القعدة سنة ٢٦٩ هـ [2] (١٨ مايو سنة ٨٨٣ م) . . ودارت المعارك في المختارة (من موقع إلى موقع ، ومن شارع إلى شارع ، ومن جسر إلى جسر واستطاع لؤلؤ وجيش مصر أن يكسر بقايا مقاومة الثوار . .

وعندما أوشكت مقاومة الثوار على الانهيار ، وأخذت جموعهم في التفرق ، وطلب الكثيرون منهم الأمان . . هرب علي بن محمد ، أثر معركة ، مع نفر من أصحابه إلى نهر السفياني ، فلحقه لؤلؤ وجيشه ، فهرب منهم إلى نهر القريري فتبعوه ، فأفلت منهم ووصل الى نهر المساوان ، فعبره واعتصم بجبل وراءه . .

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ٢٠٧ .

(٢) هكذا يذكر الطبري في تاريخه جـ٩ ص ٦٤٧ . ولكن يوم السابع من ذي القعدة يوافق السبت لا الاثنين . انظر (التوفيقات الالهامية) ص ١٣٥ .

ولم ينس الثائر القائد عندما دفعته جموع خصومه إلى الفرار من منزله أن يلتفت إلى هذا المنزل ، وأن يتحدث اليه! :

عليك سلام الله يا خير منزل خرجنا وخلفناه غير ذميم [1]
فان تكن الأيام أحدثن فرقة فمن ذا الذي من ريبهن سليم؟!

وعندما انسحب جيش الدولة إلى (الموفقية) عاد علي بن محمد مع أصحابه إلى (المختارة) من جديد . . فعاد جيش الدولة للهجوم عليه مرة أخرى يوم الجمعة أول صفر سنة ٢٧٠ هـ [2] ـ (١٠ أغسطس سنة ٨٨٣م) فكانت المعركة النهائية ، حيث تبددت بقايا جيش الثورة ولما ضاق الحصار على قائدها قذف بنفسه في نهر الأمير يريد الافلات من الأسر ، فلحقوا به وقتلوه ، واحتزوا رأسه ، فرفعوها على المعسكر ، ثم أرسلوها إلى بغداد فوصلتها يوم السبت ١٨ جمادي الأول سنة ٢٧٠هـ (٢٣ نوفمبر سنة ٨٨٣م) [3] وسط الزينات والأفراح ! . .

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٢٧ .

(٢) هكذا في تاريخ الطبري. جـ٩ ص ٦٥٩ . وفي (التوفيقات الالهامية) أن أول صفر سنة ٢٧٠ هـ هو يوم السبت ، لا الجمعة .

(٣) (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٦٦٠ .

لكن هذه الزينات لم يكن الشعب هو الذي أقامها . . وتلك الأفراح كانت أفراح السلطة والدولة في الأساس . . فالناس كانوا يدركون أن الذي حسم المعركة ضد الثورة هو الجند المصري بقيادة لؤلؤ ، وليس الموفق ، على الرغم مما سخر للحرب من سلطات وسلطان وأموال . . ويحكي المؤرخون أن أهل بغداد لما رأوا رأس علي بن محمد قد رفعت على سارية يحيط بها الجيش الذي يقوده أبو العباس ابن الموفق ، صاحوا هاتفين : « ما شئتم قولوا . . كان الفتح للؤلؤ؟! »[٢] . .

بل ويحكي هؤلاء المؤرخون كيف أن العامة صاحت بعبارات معادية لبني العباس في ذلك اليوم الحاشد والمشهود صاحوا قائلين : « رحم الله معاوية وزاد ! » ولقد تعجب أبو العباس من هذه الصيحات الاستفزازية ، وتساءل : أما كان الأوفق والأنسب أن يترحموا على « العباس » وابنه « عبدالله » ومن ولد من الخلفاء ؟! . . ثم هم بتأديب عامة أهل بغداد « حتى لا يعاودون بعد هذا الفعل مثله! » فأصدر إلى « النفاطين » - (عمال الحريق بالنفط) - بأن يحرقوا أحياء

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٩ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الجماهير التي هتفت تلك الهتافات المعادية أثناء هذه الاحتفالات . . ولكن العلاء بن صاعد بن مخلد نصح أبا العباس بالعدول عن إشعال النار في الدور ، وقال له : « أيها الأمير أطال الله بقاءك ! لا تفسد هذا اليوم بجهل عامة لا أخلاق لهم[1] » .

وما نحسب إلا أن هؤلاء « العامة » كانوا يعبرون عن مصالحهم التي اغتالتها الدولة . وعن عواطفهم التي اجتذبتها تلك الثورة التي عاد الجيش برأس قائدها بعد أن قاتل في سبيل مبادئها أكثر من عشرين عاما! . .

وبذلك انتهت أطول ثورات التاريخ الاسلامي في العصر العباسي وأشدها عنفاً وأكثرها ضحايا . . فلقد فاقت ضحاياها حد الحصر لدى المؤرخين الذين أكثروا من عددها وتعدادها وبلغت عند أقلهم مبالغة وأشدهم تحفظاً نصف مليون قتيل؟! . . وبعبارة المسعودي ، في (مروج الذهب) ، « فلقد تكلم الناس في عدد من قتل ، فالمكثرون يقولون : أفنى من الناس ما لا يدركه العدد ! والمقلل يقول

---

(١) المصدر السابق . جـ٨ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

أفنى من الناس خمسمائة ألف نفر ! وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً ، إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط[1] .

نعم . . انتهت ثورة الزنج ، وطافت الدولة العباسية برأس الثائر الشاعر العالم علي بن محمد في المدن والأمصار والآفاق . . ولكن حلم الانسان العربي المسلم بالعدل لم ينته بنهاية هذه الثورة . . ولم يتوقف عن اتخاذ « الثورة » سبيلاً لتغيير النظم الظالمة والأوضاع الجائرة . . ولم يصده عن هذا السبيل وعورة الطريق ، ولا فداحة الثمن الذي يدفعه الثوار مهراً لقيام العدل بين الناس؟! . .

وبعد أن طوى التاريخ صفحة هذه الثورة ، وسطر المؤرخون ، من أعدائها ، ما سطروا عنها من أخبار وروايات رأينا إمام الشيعة والبلاغة في مطلع القرن الخامس الهجري: الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ/ ٩٧٠ ـ ١٠١٦م) يجعل هذه الثورة وقائدها إحدى الملاحم التي تنبأ بها الامام علي بن أبي طالب عندما خاطب « الأحنف » فقال: « يا أحنف ، كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا

(١) (مروج الذهب) جـ ٤ ص ٤٧٩ .

لجب ، ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام! »

فتلك كانت صفات جيش ثورة الزنج ، لأنـه كان جيش فقراء ، وليس جيش أشراف وفرسان يمتطون الخيول التي تثير أقدامها الغبار وتحدث لجمها القعقعة وتنبعث الحمحمة من حناجرها !

ويستطرد الشريف الرضي ، وهو يشرح (نهـج البلاغـة) للامام علي ، فيتحدث عن أن هذه الثورة كانت العقاب الحق للمجتمع الذي خرج عن جادة الصـواب وتنـكب الطـريق الذي حدده روح الاسـلام . . مجتمـع التـرف والاسراف ، والدور المزخرفة ذات الأجنحة ! . . جاءته ، لتعاقبه ولتغيره ثورة الفقراء الذين نذروا أنفسهم لقضيتهم دون سواها . . فقتيلهم : شهيد ، لا يندبه ذووه ولا يبـكي عليه الأحياء ، ومن غاب منهم لا أثر لغيابه ، لأن غيره يأخـذ مكانـه كيلا تكون ثغرة في صفوف الثوار يستفيد منها الأعداء !

ولقد جعـل الشريف الـرضي أوصـاف ثوار الزنـج هذه ، أيضـاً ، إحـدى نبـوءات الامـام علي عندمـا قال: « ويل

لسكككم العامرة ، والدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور ، وخراطيم كخراطيم الفيلة ، من أولئك الـذين لا يندب قتيلهم ، ولا يفقد غائبهم !

لأنهم الكثرة والعامة والجمهور « وكلما قتل منهم قتيل سد غيره مسده ، فلا يظهر أثر فقده ! . . »[1]

ونحـن اذا قبلنـا منطـق التنبـؤ بأحـداث ما يستقبـل من الزمان ، استناداً الى وحـدة القوانـين والسنـين التـي تحـكم الظواهر الاجتماعية وتطور الصراعـات في المجتمعـات ، فان علينا أن نضيف الى « لمحة » الشريف الرضي كلمات تقول :

إن نبوءة علي بن أبي طالب لا تزال قائمة تنتظر التحقيق !

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٢٥ .

الفهرس

صدز من سلسلة كتاب الشعب

لسنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

١ - أغاني العلم	عياد موسى العوامي
٢ - يقظة الضمير	عبدالحميد المجراب
٣ - عرس الثورة	جمعه المهدي الفزاني
٤ - فلسطين والكتاب المقدس	ترجمة د. عمر التومي
٥ - الأمثال الشعبية	تجميع محمد حقيق
٦ - (١٤ قصة) من مدينتي	كامل حسن المقهور
٧ - هوامش على تذكرة سفر	محمد الزوي
٨ - معارك الغد	أحمد ابراهيم الفقيه
٩ - تاريخ المسرح في الجماهيرية	المهدي أبو قرين
١٠ - أحزان اليوم الواحد	محمد علي الشويهدي
١١ - قراءات في الأدب	د. صالح أبو أصبع
١٢ - كليلة ودمنة ومقتل ابن المقفع	محمد أحمد وريث



الثمن
١٠٠ درهم